مقالات تربوية

نقد يخنبر البصيرة

◙ إعداد:
أ.د/ منال عبد الخالق جاب الله..
أستاذ الصحة النفسية.. كلية التربية.. جامعة بنها..

النقد ... علامة استمرار العلاقات وشكل من أشكال التفاعل، له قواعده وآدابه وأخلاقياته، وله طرق مثالية لتقديمه دون إساءة للآخرين، ولأن المرء مرآة أخيه، إن رأى منه خيرا نشره، وإن رأى منه غير ذلك نصحه هاديا إليه عيوبه بإخلاص ولباقة ولياقة ودون تجريح، ولأننا أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهل نأمر الناس وننسى أنفسنا ؟

هل نعرف متى وكيف يجوز لنا انتقاد الآخر بأسلوب راق مهذب، وعلى موضوعية تجنبنا النقد دون علم وتأكيد؟

إن غياب أو تواري ثقافة النقد يجيء نتاج إرث متراكم لم يؤسس فيه لحقِّ الآخر فى الدفاع عن نفسه ورأيه دون مخالفته بسلمية وتحضر ودون نقده من غير اعتداء وتجاوز، حتى نراه وقد تحوَّل إلى قسوة وشراسة ضمنًا بل وصراحة. ولنسأل أنفسنا : من يقبل أن يتحول النقد إلى سب أو تجريح؟ ومن يقبل أن يتحول النقد إلى حصار أو عزل أو إقصاء؟ من يقبل أن يعكس النقد تدنيًا فى الخلقِ واستغناءً عن التطلع إلى التواصل مع الآخر حفاظا على كرامته وإنسانيته؟

إن النقد يطور الذات والفكر، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم: " الدين النصيحة"، فليكن مرورنا عذبًا دون لي عنق الحقيقة أو إدعاء ما ليس فينا أو فى الآخرين، ولنتآلف مع النقد ونقبله، غير أن ما يجري على الساحة وبخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي هو أشبه بمعركة تدور رحاها طوال اليوم، تروس عاملة في آلة جبارة تحفز وجدان الأفراد وفكرهم لقوالب جديدة تكشف عن تحلل من القيم واستغراق في الجهل بالأصالة والتاريخ.

وجِّه لي كلمة يا هذا، ألم يعد هناك من الوقت والمساحة ما يكفي لتختار كلمة بدلا من لكمة؟! لماذا يبدو الأمر كمنافسة شرسة في التعبير عن الغضب والاستفزاز والابتزاز حتى غدا البعض مسفا بالغ الضآلة عندما ينتقد إلى حد المصادرة، ويبتذل إلى حد الملل والبؤس.

وقد يقول قائل: إن المرء لا يلجأ إلى السخرية إلا فى أحلك لحظات حياته كشكل من أشكال المقاومة، وأنها فى النهاية شكل من أشكال النقد بل هى لغته بامتياز، عندئذ تعال ياعزيزى نفرِّقُ بين شكلين من أشكال السخرية، ونعرف من صاحب كل شكل منهما، وكيف يكون مردوده على الآخر.

عن أي سخرية سنتكلم؟ عن سخرية تنتصر للحقيقة في خدعة سحرية وتوجه النقد؟ أم عن سخرية تبلغ مبلغها من القبح والظلم والعدوان تهكما وتشويها وتجريحا؟

إن إحراج الآخر والنيل من شموخه والتشهير به والافتراء عليه، كل ذلك ليس بنقد بل سخرية مرفوضة تخالف الدين وتعارض القيم، ولا تبلغ بصاحبها هدفه بل تُرجعه عدوا غير مسموع النصح؛ لأنه يؤذي شعور الآخر، ويشيع الكراهية، ويفكك أواصر الحب.

وهي قسوة تصيب في مقتل، وتكون أشد وطأة إذا صدرت من شخص دون آخر، فحينًا يكون متربصا مستغلا للنقائص يعكس ما بنفسه من كبر وعجب، واستعلاء وفوقية، وحينًا يكون مهاجما لافتا للانتباه وصاحب يد عليا وفاقدا لحسٍّ المنطق، تنقصه الثقة التي تدعم وجوده؛ فيبادر بالهجوم كوسيلة دفاع، وحينًا يكون فارغا فى ذاته لا يملك دليلا على مقالته، وحينًا أخرى يكون شخصا سقطت مروءته وغفل قلبه، فتكون آية على جهله وضعفه وعدم قدرته على المواجهة، وقد يكون حاقدا مستفزا صاحب حق مسلوب لا يقدر على استرداده إلا بتصيد الأخطاء والعثرات، بل وتراه يتمادى حتى يعتبر أن ذلك حقٌّ له، وأولى به طلب العلاج النفسي قبل أن يتحول إلى سيكوباتي كريه يدور في متاهة ترتد عليه ولو بعد حين، وها هو قد قطع الروابط وبذر بذور الشر لأنه أورثَ مَنْ سَخِرَ منه الهوان؛ فسقطت مروءته ومروءة صاحبه، وورث- ونعوذ بالله من ذلك - غضب الله وخسر الجزاء الحسن.

وعلى العكس من كل ما سبق، نرى صاحب الخلق المؤمن الواثق، صاحب الطاقة واللباقة والتفاؤل والانفتاح، الهادئ الذي يخاطب العقل، الصادق المتزن، الذي يقف موقف القوي، هدفه الإصلاح والإثراء، راغبا في تغيير الواقع وتخطي الصعاب ... ماذا نراه يفعل ؟؟

نراه يَسخَرُ لكنها تكون سخرية في انحياز للحق والصواب، وبديلا أخلاقيا لكل ما هو غير أخلاقِي؛ وذلك لأنها موهبة أصيلة لا يملكها الجميع، وممارسة تُكْتَسَبُ بالخبرة وتُصقلُ شرط امتلاك أدوات خاصة كاللغة الرفيعة وحسٍّ الفكاهة والتفاعل الصادق مع مشكلات المجتمع.

السخرية التى تَلْبَسُ ثوب الحكمة وأن لكل مقام مقالًا، تعتمد الشفافية والمرونة، وصاحبها لا هو كاذب ولا هو مهاجم، كما أنه بالتأكيد غير راغب فى إشعال حرب أو تأجيج فتنة، تبلغ به إلى المواجهة في مخاطرة يدافع فيها عما يؤمن به، ويرفض ما يعتبره تجاوزا أو انفلاتا.

إن الساخر من الآخر على هذا النحو يأخذه إلى صفه ولسان حاله يقول: يقيني أنك ذكي بما يكفي لتفهم مقصدي، وأنك ستقطع نصف الطريق إليَّ حتى وإن بدا لك أني أذمُّك بما يشبه المدح، وهكذا يتغير موقفه وتتغير قناعته ويصل إلى نقطة الفهم.

السخرية التي نقصدها هي موقف فكري لإظهار خلاف الباطن في استفادة من بلاغة القول وعمق التعبير وصولا إلى الآخر الذي سيكون عليه كما ذكرنا أن يقف على مسافة متأملا ساعيا للتواصل وفهم الحقيقة.

هي السخرية التي لا تبالغ ولا تهادن ولا تتغاضى، تحرس القيم في خفة وحسن نية، مازحة فيها من التسلي ما لا يخل بالجد دون مواربة، تُرَغِّبُ في البكاء ولا تبعث على الأسى إلا قليلا، غير مطلقة لكنها تمر مرور الضوء الساطع فتكشف قناع اللبْسِ وتَثقبُ نافذة المعرفة، تقفز فوق الخطوط الحمراء في حماس، تحارب الموروث البالي وتتربص بالجامد النمطي، وتحث على التجديد والتنوع، وتستنهض الفكر وإعمال العقل، وترتقي بالذكاء واللباقة وحسن المنطق، وهي في كل ذلك هينة خفيفة حينًا، وثقيلة لاذعة بعض الشيء حينًا.

أكاد أقول: إن السخرية هنا دفاع عن الوجود والصمود، وسلاح لطيف وحاد في آن واحد، يفرحنا ويحزننا، نحول به الألم إلى أمل فى مفارقة باسمة رقيقة، والعجز إلى إلهام وفخر دون هجاء مكشوف أو غضب سافر، وها أنا ذا قد أكتم الحقيقة وأشِفُّ عنها أو ألمِحُ لها أو أسمِعُك صداها، ساخرا في هدوء مأساوي ضاحك يختبر البصيرة .

وأكاد ـ وأنا المتخصص في الصحة النفسية ـ أسميها إزاحة واستبدالا؛ لأنها تمكننا أن نقف على مسافة مما نقصد التعبير عنه في عين الحقيقة فلا نصرح به، وتأتي دائما تعبيرا عن موقفين ورأيين ونظرتين بل وفي لغتين، المعنى العميق الذي تخاله سطحيا، لكنه يمكننا من تمرير الحقيقة ونقل المعنى عبر بلاغة قلبهِ وإظهار عكسِهِ، عفوية أولية متفجرة، لكنها تعكس قيمة نقدية، إذ هِي تُصَدِّرُ لك الفكرة وتضربها فى آن واحدٍ، فتقف متأملا متأنيا تراجع ذاتك، وقد حَرَّضَكَ كل ذلك على الفهم الحقيقي للنقد الموجَّه لك.

هي حياتنا يا عزيزي : موقف من الآخر، فاختر السخرية التي تعبر بك حاجز الخوف والصمت وتكون ملاذك للحرية في عمق يسمو فوق التنكيت والتهريج وهجاء النقائص، يميزها اللين واللطف والأدب واستبقاء الود، والصدق في الإصلاح والتقويم، فما المرء إلا مرآة أخيه، وأعوذ بك أن تقول فيمن قال: ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين.

المراجع:

عبدالنبى ذاكر(٢٠١٠): أبحاث في الفكاهة والسخرية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، المغرب.

محمود يوسف الشوبكي (٢٠١٣): النسبي والمطلق في مفهوم الدين والحق والأخلاق. مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الإسلامية، المجلد٢١، العدد الأول، ١-٣٥.

منال عبد الخالق جاب الله (٢٠١٧): دعوة للتآلف مع النقد. مجلة إبداعات تربوية، رابطة التربويين العرب، عدد أبريل.

هدى ثواب بن عيضة الشلوى (٢٠١٣): الاختلاف في الرأي وضوابطه من منظور التربية الإسلامية في ضوء متطلبات الواقع المعاصر، ماجستير في التربية الإسلامية المقارنة، جامعة أم القرى.